الترادف

للاستاذ على الجارم عضو مجمع اللغة العربية الملكى

عُنِي علماء اللغة بالبحث فى الترادف ، وجالوا فيه جَولات ، تدل على كثير من التقصى والاستيعاب ، وأدلَوا فيه بآراء ، هداهم إليها النظر والاستقراء ، وتناولوه بالتأليف ، فألف فيه مجد الدين الفَيروزابادى صاحبُ القاموس كتابا ، سماه "الروض المسلوف ، فيما له اسمان إلى ألوف" ؛ وأفرد له جماعة من الأئمة كتبا ، فى أشياء مخصوصة ، فألف ابن خالويه كتابا فى أسماء الأسد ، وكتابا فى أسماء الحية .

وكان اهتمام علماء الأصول والمناطقة به عظيما ، فأفاضوا فيه وأسهبوا ، وأكثروا من التحقيق ، الذى أثر عن علماء الأعاجم ، ووسمت به مباحثهم ؛ لأن الأصوليين ، وغايتهم استنباط الأحكام واستخلاصها من النصوص ، يرون من الحتم أن يبحثوا فى الألفاظ ومدلولاتها ، ومنها المترادف ، ويَعنيهم أن يبتوا رأيا فى المترادفين : أيدلان على معنى واحد ، أم يدلان على معنيين متحدين فى الجملة ، مع فرق يحول دون استعمال أحدهما فى مكان الآخر .

والمناطقة ، وصناعتهم تحديد المعانى ، وكشف الحقائق ، يرون البحث فى الترادف من المسائل الحقيقة بالعناية والنظر ، حتى تظهر معانى الحدود والقضايا ، محدودة خالية من الشوائب ، التى تحول دون دقة الفكر ، وسلامته من الزلل .

جاء فى الصفحة ٢٣٨ من الجزء الأول من المزهر للسيوطى فى تعريف المترادف :

"قال الإمام فخر الدين : هو الألفاظ المفردة ، الدالة على شىء واحد ، باعتبار واحد . قال : واحترزنا بالإفراد عن الاسم والحد ، فليسا مترادفين ، وبوحدة الاعتبار عن المتباينين ، كالسيف والصارم ؛ فانهما دلا على شىء واحد لكن باعتبارين : أحدهما

على الذات ، والآخر على الصفة . والفرق بينه وبين التوكيد أن أحد المترادفين يفيد ما أفاده الآخر، كالإنسان والبشر ، وفى التوكيد يفيد الثانى تقوية الأول ؛ والفرق بينه وبين التابع أن التابع وحده لا يفيد شيئا، كقولنا عطشان نَطْشان " .

وقال ابن فارس : "ويسمى الشيء الواحد بالأسماء المختلفة ، نحو : السيف ، والمهند، والحسام " . ثم عقب على ذلك بكلام سنسوقه بعد .

وجاء فى كشاف مصطلحات العلوم للتهانوى :

"النرادف لغة : ركوب أحد خَلْف آخر ، وعند أهل العربية والأصول والميزان هو: توارد لفظين مفردين، أو ألفاظ كذلك فى الدلالة على الانفراد، بحسب أصل الوضع ، على معنى واحد ، من جهة واحدة . وتلك الألفاظ تسمى مترادفة . فبقيد اللفظين خرج التأكيد اللفظى ، لعدم كون المؤكَّد فيه والمؤكِّد لفظين مختلفين ، وبقيد الانفراد التابع والمتبوع ، نحو عطشان نطشان ، وإن قال البعض بترادفهما ، وبقيد أصل الوضع خرج الألفاظ الدالة على معنى واحد مجازا ، والتى يدل بعضها مجازا وبعضها حقيقة ، وبوحدة المعنى خرج التأكيد المعنوى والمؤكد ، وبوحدة الجهة الحدّ والمحدود ، قيل فلا حاجة إلى تقييد الألفاظ بالمفردة ، احترازا عن الحدّ والمحدودّ : (إذ الحد يدل على المفردات مفصلة بأوضاع متعدّدة ، بخلاف المحدود ، فإنه يدل عليها بجملة بوضع واحد) .

وقد يقال إن مثل قولنا : (الإنسان قاعد ، والبشر جالس) قد تواردا فى الدلالة على معنى واحد ، من جهة واحدة ، فإن سميا مترادفين فذلك ، وإلا احتيج إلى قيد الإفراد ، وهو ظاهر .

والذى يؤخذ على التهانوى أنه أخرج التوكيد المعنوى والمؤكد بقيد وحدة المعنى ، وكان الأولى أن يخرج بهذا القيد الألفاظ المتباينة ، نحو رجل وكتاب ، والأسماء وصفاتها ، نحو السيف والحُسام ، أما التوكيد المعنوى والمؤكد فخارج بقيد الانفراد ،

لأن التوكيد المعنوى لا يقع منفردا ، ويؤخذ عليه أيضـا عدّه : (الإنسان قاعد، والبشر جالس) تركيبين مترادفين، مع أن هناك فرقا مشهورا بين القعود والجلوس، كما سيأتى بيانه .

وقد فهمنا من هـذا التعريف أن الترادف بمعناه الدقيق ، يوجب أن تكون الألفاظ الدالة على معنى واحد، قد وضع كل منهما وضعا مستقلا لهذا المعنى، فالشئ ووصفه ليسا مترادفين ، والحقيقة والمجـاز أو الكناية ليسا مترادفين . ولكن المطلع على كتب اللغـة ، وعلى ما عدّه علمـاؤها من المترادف ، يرى كثيرا من التساهل فى هـذه الناحية، فالتشابه فى المعنى كاف عندهم للحكم بالترادف، من غير نظر إلى حقيقة أو مجاز أو وصف .

وقد افترق علماء اللغة فى الترادف، فأجاز فريق وقوعه فى اللغة، وأنكره فريق ، قال السُّيوطى فى المُزْهِر فى الصفحة ٢٣٨ من الجزء الأول: "ومن الناس من أنكره، وزعم أن كل ما يظن من المترادفات، فهو من المتباينات: إما لأن أحدهما اسم الذات والآخر اسم الصفة ، أو صفة الصفة " .

وقال ابن فارس بعد التمثيل بالسيف والمهند والحسام: " والذى نقوله فى هذا إن الاسم واحد، وهو السيف، وما بعده من الألقاب صفات، ومذهبنا أن كل صفة منها معناها غير معنى الأخرى ، وقد خالف فى ذلك قوم، فزعموا أنهـا وإن اختلفت ألفاظها، فإنها ترجع إلى معنى واحد" .

وقال آخرون: ليس منها اسم ولا صفة إلا ومعناه غير معنى الآخر، قالوا: وكذلك الأفعال ، نحو مضى وذهب وانطلق ؛ وقعد وجلس ؛ ورقد ونام وهجع ؛ قالوا : ففى قعد معنى ليس فى جلس ، وكذلك القول فيما سواه .

وبهذا نقول، وهو مذهب شيخنا أبى العباس أحمد بن يحى ثعلب .

واحتج أصحاب المقالة الأولى بأنه لو كان بكل لفظة معنى غير معنى الأخرى، لما أمكن أن يُعبَّر عن الشئ بغير عبارته ، وذلك أنا نقول فى (لا ريب فيه : لا شك فيه) ، فلو كان الريب غير الشك ، لكانت العبارة عن معنى الريب بالشك خطا ، فلما عُبِّر عن هذا بهذا ، عُلِم أن المعنى واحد .

قالوا : وإنما يأتى الشعر بالاسمين المختلفين للمعنى الواحد فى مكان واحد توكيدا ومبالغة كقوله : "وهند أتى من دونها النأى والبعد" .

قالوا : فالنأى : هو البعد .

ونحن نقول : إن فى قعد معنى ليس فى جلس، ألا ترى أنا نقول: قام ثم قعد، وأخذه المقيم المقعد ، ونقول لناس من الخوارج قَعَد ، ثم نقول كان مضطجعا ، فجلس ، فيكون القعود عن قيام، والجلوس عن حالة هى دون الجلوس ؛ لأن الجَلْس المرتفع ، فالجلوس ارتفاع عما هو دونه ، وعلى هذا يجرى الباب كله .

وأما قولهم إن المعنيين لو اختلفا لما جاز أن يُعَبَّر عن الشىء بالشىء ، فإنا نقول : إنما عبر عنه من طريق المشاكلة ، ولسنا نقول إن اللفظين مختلفان، فيلزمنا ما قالوه ، وإنما نقول إن فى كل واحدة معنى ليس فى الأخرى .

وجاء فى الصفحة ٢٣٦ من الجزء الأول من المُزْهِر " قال أبو العباس عن ابن الأعرابى: "كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد، فى كل واحد منهما معنى ليس فى صاحبه، ربما عرفناه فأخبرنا به، وربما غمض علينا فلم يلزم العرب جهله ، وقال : الأسماء كلها لعلة ؛ من العلل ما نعلمه ، ومنها ما نجهله" .

وجاء فى الصفحة ٢٤٠ من الجزء الأول من المزهر :

"وقال العلامة عز الدين بن جماعة فى شرح جمع الجوامع : حكى الشيخ القاضى أبو بكر بن العربى، بسنده عن أبى على الفارسىّ ، قال: كنت بمجلس سيف الدولة

بحلب ، وبالحضرة جماعة من أهل اللغة ، وفيهم ابن خالويه ، فقال ابن خالويه : احفظ للسيف خمسين اسما ، فتبسم أبو على وقال : ماأحفظ له إلا اسما واحدا ، وهو السيف ؛ قال ابن خالويه : فأين المهند ، والصارم ، وكذا ، وكذا ؟ قال أبو على : هذه صفات ، وكأن الشيخ لا يفرق بين الاسم والصفة " .

وجاء فى كَشَّاف مُصطلحات العلوم للتَّهانوى :

" زعم البعض أن المرادف ليس بواقع فى اللغة ، وما يظنّ منه فهو من باب اختلاف الذات والصفة ، كالإنسان والناطق ، أو اختلاف الصفات ، كالماشى والكاتب ، أو الصفة وصفة الصفة ، كالمتكلم والفصيح ، أو الذات وصفة الصفة كالإنسان والفصيح ، وقال : لو وقع الترادف لَعرِى الوضع عن الفائدة ، لأن الغرض من وضع الألفاظ ليس إلا إفادة التفهيم فى حق المتكلم ، واستفادة التفهم فى حق السامع ، فأحد اللفظين يكون غير مفيد ؛ لأن الواحد كاف للإفهام ، والمقصود حاصل من أحدهما ، فلا فائدة فى الآخر ، فصار وضعه عبثا ، فلا يقع عن الواضع الحكيم " . هكذا فى حواشى السلم .

ولم يُغْفِلِ البحثَ فى الترادف علماء اللغات الأخرى ، ومما هو جدير بالنظر أن آراء بعضهم فى هذا الموضوع توافق كثيرا من آراء علمائنا ، وأن الدافع لهم إلى البحث هوالدافع نفسه ، الذى حفز رجال لغتنا إلى الكلام فى الترادف ، والإفاضة فيه.

قال الأستاذ ترِنْش فى كتابه "دراسة الكلمات" :

(Study of Words — Lectures, by Richard Chenevix Trench. D.D. Archbishop of dublin.) ما محصله :

"قد يسأل سائل عن معنى الترادف حينما نوازن بين بعض الكلمات ، ونجزم بأن بينها ترادفا . إننا نقصد أنها مع شدة تشابه معانيها تتضمن فروقا صغيرة جزئية ، وهذه الفروق إما مصاحبة لها فى أصل الوضع ، وإما طارئة عليها بالاستعمال ، وإما أنها

جاءت إليها من تصرف البلغاء ، وأساطين البيان . فالمترادفات كلمات متشابهة فى المعنى الأساسىّ ، مع قليل من التباين فى نواح أخرى ، أو أنها تشترك فى المعنى العام ، ولكن كل واحدة منها تختص بنصيب ، تنفرد به دون الأخرى . وفى هذا التعريف شىء من التساهل فى شرح معنى الترادف ، فمن الهين أن يرى كل من له إلمام بعلم اللغة أن إطلاق الترادف على الكلمات المتشابهة فى معانيها الأساسية ليس غير ، تسمية غير صحيحة ، و إطلاق خال من الدقة والصواب ، لأن المعنى الدقيق للترادف ، يقتضى أن تتضمن الكلمات المترادفة معنى واحدا على التحديد ، لا على التقريب ، وأن يكون تشابه المعنى فيها كاملا ، وأنها ، إن صح التشبيه ، دوائر متحدة فى المركز والمحيط .

ولكن المترادفات لا تستعمل فى العادة مع النظر إلى ما بينها من فروق دقيقة ، لأننا دون أن نجرؤ على إنكار أنه قد يجوز أن يكون هناك كلمات حقيقية الترادف ، نرى أن مثل هذه الكلمات لا يستطاع البحث عما بينها من فروق ، لعدم وجود هذه الفروق " .

فهو لا يستطيع إنكار الترادف بأدق معانيه ، وإن أخذ من كلامه ما يدل على نُدْرته ، وهو لا يدعو إلى التمحُّل فى تلمس الفروق بين كل مترادفين ، ثم هو يؤثر استعمال الترادف بمعناه الشائع عندهم ، الذى يسوّغ وجود فروق دقيقة بين الكلمات ، خلافا لمن أنكره من علماء العربية فإنهم لا يعبرون عن ذلك بالترادف بتاتا . ثم نراه ينتقل إلى بحث جديد فى الترادف بين لغتين ، فيقول :

" وهناك طائفة تجزم بأن كلمات اللغة الواحدة ، لا يمكن أن تكون مرادفة تمام الترادف لكلمات أخرى ، وأنه عند مقابلة إحداها بقرينتها ، لا بد أن يكون فى أحد المعنيين زيادة أو نقص ، يحول دون الاتفاق التام ، وإنى أرى أن وجود كلمات من لغتين تتفق معانيها تمام الاتفاق نادر جدا ، فان الكلمة ليست إلا سُورا

حول رقعة صغيرة أو كبيرة من فضاء الفكر أو الحقيقة ، وبهذا استطاع الإنسان أن يستعين بها فى حياته ، ويختارها لمعونته، فمن غير المحتمل أن كل أمة ترسم مستقلة منفصلة عن الأخرى خطوط هذه الأسوار، فى كل الأحوال أوأغلبها، مطابقة تمام التطابق لخطوط الأخرى . إن المعقول ألا تتطابق الخطوط . وهذه الحقيقة تهيئ لنا موازنة جليلة الشأن بين اللغات ، وتكفى فى أن تسوق المترجم البارع الدقيق، إلى ما يقرب من اليأس والقنوط" .

ولا شك أن فى هـذا الرأى شيئا من العُلُوّ ، وربما كان قريبا من الحق فى المعنويات والوجدانيات ، أما فى المحسوسات المشتركة بين الناس، فالترادف فيها جلى بين، فكلمات، الشمس، والقمر، والكتاب، والماء، ذوات معان متطابقة، فى جميع اللغات . ثم يعود إلى موضوع الترادف فى اللغة الواحدة، ويحدّد معناه فى شىء من الوضوح والتكرار، فيقول :

"فالمترادفات إذًا ، كما يفهم من الاستعمال العام ، وعلى النحو الذى اختاره لاستعمالها هنا ، كلمات من لغة واحدة، مع فروق ضئيلة صاحبتها منذ وضعها، أو طرأت عليها، فهى ليست متشابهة المعنى تماما، وليست بعيدة التشابه، لأن الفروق فى الكلمات البعيدة التشابه فى المعنى جلية ظاهرة، تبدو على السطح، ويراها المرء أول وَهلة ، وإذا حاول أن يوضح الفرق بينها ، كان فى عبثه كمن يحاول أن يُوقد شمعة، ليجعل الشمس أكثر إضاءة وظهورا؛ فقد يتطلع المرء إلى تحديد الفرق بين الأُرجوانى والقِرْمِزى : لأن هاتين الكلمتين قد تختلطان ، ولكن مَنْ ذلك الذى يفكر فى البحث عن الفرق بين الأُرجوانى والأخضر ؟ فالمترادفات إذًا: كلمات معرضة للاشتباه قليلا أو كثيرا؛ والواجب يدعو إلى إزالة هذا الاشتباه والاختلاط . وهى كلمات وِرثت فى أصل وضعها فروقا ، أو أنها مع تطابقها فى أصل الوضع تمام التطابق ، نمت بينها فروق ، واستقرت باستعمال فطاحل الكتّاب ، ومصاقع الخطباء" .

ومجمل حُجة القائلين بمنع الترادف أنه إذا كان واضع اللغة واحدا ، كان وضع كلمتين أو أكثر لمعنى واحد لغوا و إضاعة وإسرافا ، وأن الغرض الأول من اللغة التفاهم ، وأن يكون الوضع تابعا للحاجة الملحة ، وأنه إذا وضع لفظ لمعنى كان عَلَما عليه ، وسِمَة له ، فإذا تكرر وضع اسم آخر ، ثم آخر لهذا المعنى ، من غير نقص فيه أو زيادة ، كان ذلك عملا خاليا من الموجب ، عَرِيًّا من الدافع . وقد دفعهم هذا الرأى إلى البحث عن الفروق بين كل كلمتين يظهر ترادفهما ، فأوغلوا فى ذلك إيغالا ، ثم تعسفوا تعسفا شديدا .

جاء فى الصفحة ٢٣٩ من الجزء الأول من المزهر :

"وقال التاج السبكى فى شرح المنهاج : ذَهب بعض الناس الى إنكار المترادف فى اللغة العربية ، وزعم أن كل ما يُظن من المترادفات ، فهو من المتباينات ، التى تتباين بالصفات ، كما فى الإنسان والبشر ، فإن الأول موضوع له باعتبار النسيان ، أو باعتبار أنه يؤنس ، والثانى باعتبار أنه بادى البشرة ، وكذا الخَندريس والعُقار ، فإن الأول باعتبار العِتق ، والثانى باعتبار عَقْر الدن لشدتها ، وتكلف لأكثر المترادفات بمثل هذا المقال العجيب" . ويرى من أجازوا الترادف أنه واقع فى اللغة الواحدة ، ما من الاعتراف بذلك بُدّ ، فان الحنطة والبر والقمح لا فرق بينها فى المعنى ، وفى تصيد الفروق بينها تجشم الصعاب ، وركوب الطريق الوعرة ، فى غير حاجة إلى تلمس أوهام ، لا توشك أن تتراءى حتى تزول .

جاء فى كشاف مصطلحات العلوم للتَّهانَوِىّ : "والحق وقوعه ، بدليل الاستقراء ، نحو قعود وجلوس ، وأسد وليث ، ولانسلم التعرى عن الفائدة ، بل فوائده كثيرة ، كالتوسع فى التعبير ، وتيسر النظم والنثر ، إذ قد يصلح أحدهما للقافية والروى دون الآخر ، ومنها تيسر أنواع البديع ، كالتجنيس والتقابل وغيرها . مثال السجع قولك : ما أبعد ما فات ، وما أقرب ما هو آت ، فانه لو قيل بمرادف ما فات ، وهو "ماضى" أو بمرادف ما هو آت وهو ، "ما هو جاءٍ" أو غيرها ،

لفات السجع . ومثال المجانسة قولك : اشْتَرِ البُرَّ ؛ وأنفقه فى البِرّ ؛ فانه لو أتى بمرادف الأول ، وهو " الحنطة " ، أو بمرادف الثانى ، وهو " الخَيْر " ، لفاتت المجانسة " .

وجاء فى ص ٢٤١ من الجزء الأول من المزهر: "وله فوائد، منها أن تكثر الوسائل أى الطرق إلى الإخبار عما فى النفس، فانه ربما نَسِى أحد اللفظين، أو عَسُر عليه النطق به، وقد كان بعض الأذكياء فى الزمن السالف ألثغ، فلم يحفظ عنه أنه نطق بحرف الراء ، ولولا المترادفات تعينه على قصده لما قدر على ذلك ، ومنها التوسع فى سلوك طرق الفصاحة ، وأساليب البلاغة ، فى النظم والنثر ، وذلك لأن اللفظ الواحد قد يتأتى باستعماله مع لفظ آخر السجع ، والقافية ، والتجنيس ، والترصيع ، وغير ذلك من أصناف البديع، ولا يتأتى ذلك باستعمال مرادفه مع ذلك اللفظ" .

ثم جاء فيه بالصفحة ٢٣٨ :

" وقال قُطرب : إنما أوقعت العرب اللفظين على المعنى الواحد ، ليدلوا على اتساعهم فى كلامهم، كما زاحفوا فى أجزاء الشعر، ليدلوا على أن الكلام واسع عندهم". وأبعد من هذا مدى فى فائدة الترادف ، أن فحول الشعراء والكتاب يُلْبسون كل معنى من المعانى ، ثوبا من الألفاظ يناسبه ويلائمه ، ويبرز جماله الفنى ، ولكل غرض من أغراض الكلام ألفاظ خاصة، يختارونها دون غيرها، لتظهر هذا الغرض فى أجمل صُوره ، وأروع ألوانه : ففى الحماسة والفخر يعمدون إلى اللفظ الجزل، والكلم الفحل، فهنا يقال الكَلْكل والحيزوم، ولا يقال الصدر، ويقال : الغضنفر ، ولا يقال الأسد ، ويقال : الشَّذْقَمِيات ، ولا يقال النوق، ويقال : الصَّمصام ، ولا يقال السيف، أما فى الغزل والعتاب مثلا . فيعمدون إلى الرقة والسهولة، فترى الألفاظ الدَّمِثَة الشائقة الهيِّنة اللطيفة ، التى تكاد تمتزج بالهواء ، وتسيل مع الماء ؛

ومن أبين ما يشرح ذلك ويوضحه أشعار بشار وأبى نُوَاس ، كلاهما ينسج على حسب فخامة غرضه عنده ، أو هَوانه عليه ، وعلى حسب منزلة سامعيه ، فتراه مرة فى مراتب الجاهليين : ضخامة وجزالة ، وتراه أخرى وقد بلغ الغاية فى السهولة والرقة .

وقد يُبْنَى البيت الواحد أو الأبيات على اللفظ الفحل، والكَلِم الشديد الأَسْر، حتى لو أنك وضعت مرادفا رقيقا لكلمة ، لأفسدت الشعر ، وأبطلَت السِّحر، كما أن البيت قد يتألف كله من الألفاظ الناعمة اللينة ، فاذا بدل بإحدى كلماته كلمة مرادفة ضخمة ، فقد انسجامه ، وحسن جَرْسه ، وروعة تأثيره .

استمع لقول الشريف الرَّضِىّ فى وصف الشجاع :

ليس الشجاع الذى من دون رؤيته باب يُلاحيك مِصراعا بمصراع
ولا الذى إن مضى ابقى لوارثه سوائما بين أَصْواح وأَجزاع
لَكِنَّه من إذا أَودَى فليس له الا عقائلُ أَرماح وأدراع
يَعَسُّه الذئب فى الظلماء مرتفعا على رحائلَ ملقاةٍ وأقطاع
يذوق العينَ طعم النوم مَضمَضة إذا الجبانُ ملا عينا بتَهجاع
أَشَيْعثُ الرأس، لا يجرى الدِّهان به وإن فَلَا فبماضى الغرب قَطَّاع

هل تحس أنك اذا أبدلت بكلمة من كلمات الشريف كلمة أخرى نلت من جمال الشعر وجلاله ؟

ثم انظر إلى قول البهاء زهير :

إن شكا القلب هجركم مَهِّد الحُبُّ عُذركم
لو رأيتم مَحَلَّكم من فؤادى لسركم
قَصِّروا مدة الجفا طوّل الله عمركم

فهل ترى انك لو وضعت كلمة خشنة مكان إحدى كلمات هذا الشعر لأفسدته وقضيت عليه ؟

من كل ما قدمناه تظهر فائدة الترادف فى صناعة الكلام ، فهو الذى فَسَح المجال أمام البلغاء ليختاروا من كل طائفة من المترادفات كلمـة تلائم غرضهم ، وتتفق مع النسج الذى أرادوه ، فالكلمة المنبوذة اليوم محبوبة غدا ، والتى لا تصلح لهذا الضرب من الكلام تصلح لغيره .

بعد أن بسطنا آراء العلماء فى الترادف، واختلافهم فى وقوعه وعدم وقوعه، نرى أن نبين هنا أن كلا الفريقين تجاوز الحد، وركب مَتْن الشَّطَط: هؤلاء فى البحث عن الفروق جاهدين مثابرين، وهؤلاء فى تسمية كل متشابهين فى المعنى مترادفين، غير ناظرين إلى ما بينهما من فروق فى المعنى ، أو اختلاف فى الوضع ، حتى كأنهم كانوا يريدون أن يُرَدّوا مخالفيهم الحجةَ عليهم ، فقد ذكر السيوطى فى الصفحة ٢٤٢ من الجزء الأول من المزهر ، سبعة وثمانين اسما للعسل ، نقل خمسة وثمانين منها عن صاحب القاموس، من كتابه الذى سماه : "ترقيق الأسل؛ لتصفيق العسل"، وعَقّب عليه بزيادة اسمين ، هما الصَّرْخَدىّ والسَّعابيب . ونقل عن ابن خالويه فى شرح الدريدية واحدا وأربعين اسما للسيف . ثم نقل أسماء كثيرة للصدر ، والعمامة ، والثوب الخلق، والأصل، وغير ذلك مما يمكن الرجوع إليه فى المزهر . وفى فقه اللغة للثعالبى : "قد جمع حمزة بن الحسن الأصبهانى من أسماء الدواهى ما يزيد على أربعمائة، وذكر أن تكاثر أسماء الدواهى من الدواهى" . ونقل السيوطى عن ابن فارس قال : أخبرنى على بن أحمد بن الصباح — قال حدثنا أبو بكر ابن دريد قال حدثنا ابن أخى الأصمعى ، عن عمه : أن الرشيد سأله عن شعر غريب لابن حزام العُكْلى ، ففسره ، فقال : ياأصمعى ، إن الغريب عندك لغير غريب !

قال : يا أمير المؤمنين ، ألا أكون كذلك وقد حفظت للحجر سبعين اسما . وجاء في الصفحة ٢٤٤ من كتاب المزهر : "وفى الجمهرة قال أبو زيد : قلت لأعرابى : ما المحبنطئ ؟ قال : المتكأكئ . قلت : ما المتكأكئ ؟ قال : المتأزِّف . قلت : ما المتأزِّف ؟ قال أنت أحمق !

من هـذا يُرَى إغراق بعض اللغويين فى تصيُّد الترادف ، وسعيهم الحثيث في تكثير الأسماء لمسمى واحد ، والتحلُّل من أكثر القيود للوصول إليه ؛ وربما كان الدافع لهم ميلهم الشديد إلى التباهى بالعربية، والزهو بسعة مداها ، والإشادة بثروتها وغناها، حتى لقد ساقهم ذلك إلى حشر كثير من الكلمات لمسمى واحد ، مع وجود الفـروق المميزة ، أو مع اتحـادها فى المـادة اللغوية ؛ أو مع اختلافها فى الحقيقة والمجـاز والكناية ، والمثـل الذى نختاره لذلك هو ما أورده السيوطى فى المزهر للعسل من الأسماء، وسنعمد إلى شرح كل كلمة، ونعقِّب عليه بما نراه . وهاك الكلمات :

الضَّرَب : العسل الأبيض، واستضرب العسل : أبيض وغلُظ، فالضَّرَب : العسل مقيدا بصفة خاصة .

الضَّربة : واحدة الضرب وهى الشديد البياض منه .

الضَّريب : من معانيه المِثل ، والرأس ، والمُوَكَّل بالقِداح، أوالذى يضرب بهـا ، والقدح الثالث ، واللبن يُحلب من عدة لِقاح فى إناء . فليس من معانيه العسل ، وأشبه الأشياء أن يكون بمعنى اللبن يحلب من عدة لِقاح ، وقد أطلق على العسل مجازا ، لعلاقة المشابهة ، لأن العسل يجمع من عدة خلايا .

الشَّوْب : ما شُبته من ماء ، والعسل، واشتاب وانشاب : اختلط . والظاهر أن الشوب يطلق على العسل ممزوجا .

الذوب : العسل أو ما فى أبيات النحل ، أو ما خلص من شمعه . والظاهر أن صفة الذَّوَبان والسيل ملحوظة فى التسمية :

الحِميت : الحميت من كل شيء ، المتين : حتى إنهم ليقولون : تمر حميت ، وعسل حميت .

التحموت : كالحميت ، عن السيرافى . فصفة المتانة أو الغلظ مفهومة منه .

الجَلْس[1] : الغليظ من الأرض، ومن العسل ؛ وبقية العسل فى الإناء ، فهو مقيد غير مطلق .

الوَرْس : نبات كالسِّمْسِم ليس إلا باليمن ، فإطلاقه على العسل مجاز ، علاقته المشابهة فى اللون .

الأَرْى : فى المخصص الأَرْى العسل أبو حنيفة أصل الأرى العمل أَرَت النحلة أَرْيا وتأرت وائترت : عَمِلت العسل ، فهى تسمية بالمصدر .

الذواب : العسل ؛ وصفة الذوبان ملحوظة .

اللَّوْمة : الشَّهدة . تلوم فى الأمر تَمَكَّث وانتظر .

اللِئم : الصلح والاتفاق ، والعسل ، من لأم فلانا : أصلحه . والصفة هنا ظاهرة .

النسيل : ما يسقط من الصوف والريش عند النسل ، والعسل إذا ذاب وفارق الشمع .

النسيلة : واحدة النسيل ، والولد ، والفتيلة ، والعسل إذا ذاب وفارق الشمع ، فصفة الذَّوَبان والسيل ملحوظة فى هاتين الكلمتين .

---

(١) والجليس أيضا ، كما فى المخصص .

الطَّرْم ، الطِّرْم : الشَّهد ، والزُّبد ، والعسل إذا امتلأت منه البيوت ، وقد طَرِمَت بيوت النحل تطرَم طرما : امتلأت من الطرم ؛ والعسلُ طَرَما : سال من الخلية ، فصفات التراكم والغزارة والطراوة ملحوظة .

الطُّرام ، الطِّريم[1] : العسل والسحاب الكثيف ، ويقال تَطَرْيَم فى الطين تَطَرْيُما : تلوَّث ، فالتلويث منظور إليه هنا .

الدَّسْتَفْشار — المُسْتَفْشار — العسل الذى لم تمسه النار ، وليست واحدة منهما عربية ، لأن هذا البناء ليس فى كلامهم .

الشهدُ ، الشُّهد : العسل ومُومه ، والشُّهدة أخص . فهو العسل فى شمعه .

المِحران : العسل ، من حرنت الدابة كنصر ، وهى التى إذا اشتد جريها وقفت ، ولعله يراد به هنا العسل الذى صعب اشتياره [2] .

العُفافة : من العسل مثل السلافة ، وهو أول ما يتسلل من الشهد إذا وضع فى المِعصرة ليجرى .

العُنفوان : رُبُّ العنب ، كالعفافة ، وصفة النقاء فيهما ظاهرة .

المـاذِىّ : العسل أو الأبيض منه ، أو الصافى ، فهو مقيد بوصف .

المـاذية : الخمرة السهلة فى الحلق ، وإطلاقها على العسل من قبيل المجاز .

الظان ، الظن [3]

البَلة ، البِلة : السَّمُر ، أو عسله .

السِّنَوت ، السِّنُّوت : العسل .

---

(١) زاد فى المخصص الطارم وهو العسل الطرى ، وعن ابن دريد أنه الطريم .

(٢) فى المخصص المحران : الشهدة تبعد فلا يسهل إخراجها ، كأنها لزمت مكانها .

(٣) أظنهما محرفين عن الظيان والظى ، جاء فى المخصص : الظيان شىء من العسل ، وجاء فى الأشعار

السنوة[1] :

الشراب : اسم لكل ما يُشرب ، فاستعماله فى العسل من استعمال العام فى الخاص .

الغربة[2] :

الآس : العسل أو بقيته فى الخلية .

الصَّبيب : من معانيه العسل الجيد ، فهو مقيد بصفة .

المزَج ، المِزج : اللوز المر ، والعسل ، تسمية بالمصدر أو باسمه ، قال أبو ذؤيب :

بجاء بمزج لم ير الناس مثله هو الضَّحْك إلا أنه عمل

والظاهر أن المراد بالمصدر والاسم هنا اسم المفعول أى الممزوج ، فالصفة فيه ظاهرة .

لُعاب النحل : تعبير يقرب من الكناية .

الرُّضاب : الريق فى الفم ، ومن معانيه لُعاب العسل ورُغوته ، وهو من إطلاق العام على الخاص فيما يظهر .

رُضاب النحل : جَنَى النحل ، رِيق النحل ، قىء الزنابير — هذه أشبه شىء بالكنايات .

الشَّوْر : شار العسل يشوره شَوْرا آستخرجه من الوَقْبة ، والشور : العسل المشور ، فهو مصدر أريد به اسم المفعول .

---

(١) الظاهر أن هذه الكلمة محرفة فى الأصل .

(٢) يظهر أنها محرفة عن العرابة ، ففى المخصص — العرابة : عسل الخَزَم ، لأنه يقال لثمره العرابة .

السَّلْوَى : العسل[1] .

مُجاج النحل : أشبه بالكناية .

الثَّواب : العسل ، والنحل لأنها تثوب ، فهو مصدر استعمل فى اسم الفاعل أولا ، وهو النحل ، ثم استعمل فى العسل مجازا .

الحافظ ، الأمين : لا يدلان على العسل .

الضَّحْل : المـاء القليل ، والظاهر أنه محرف عن الضحك ، والضحك : الثغر ، ويطلق على العسل لبياضه ، على التشبيه .

الشِفاء : ليس من معناه العسل ، ولعله أخذ من قوله تعالى : فيه شفاء للناس. ويقال : أشفاه الله عسلا أى جعله شفاء له .

اليمـانية : نسبة إلى اليمن .

اللِّواص : الفالوذ ، والعسل الصافى ، فهو مقيد .

السَّليق : ما تبنيه النحل من العسل فى طول الخلية .

الكُرْسُفىّ : الكُرْسُف : القطن . الكرسفى : نوع من العسل ، كأنه سمى به لبياضه كالقطن .

اليعقِيد : عسل يعقد بالنار ، وطعام يعقد بالعسل [2] .

السُّلوانه : خرزة للتأخيذ ، وليس من معانيها العسل .

السُّلوانه : السَّلوانة ، والعسل .

الرُّخيف : لعلهـا تصغير الرُّخْف وهو الزبد الرقيق أو المسترخى ، والعجين الكثير المـاء ، فاطلاقه على العسل إطلاق مجازى

---

(١) لأنه يسلى عن كل حلو : إذ هو فوقه .

(٢) وقد يكون إطلاقها على العسل لأنه يسلى عن غيره .

الجَنَى : كل مايجنى، والذهب، والودع، والرطب، والعسل . فهو من إطلاق العام على الخاص .

السُّلاف ، السُّلافة : أول مايعصر من الخمر، وقيل هما من كل شيء خالصه ؛ فاطلاقهما على العسل مجاز ، أو خاص بالخالص الصافى منه .

الشَّرْو ، الشِّرو : العسل ، وهما مقلوبا الشور .

الصميم : من معانيها خالص الشيء ، وهو وصف .

البَحْتُ : الشمع ، وقيل خِرْشاء العسل ، وهى الجلدة الرقيقة ، تركب اللبن ونحوه ، أو كل قَذى خالط العسل .

الصَّهباء : الخمر، وقيل ماعصرت من عنب أبيض، فاستعمالها فى العسل مجازى .

الخَتْم : العسل، وأفواه خلايا النحل ، وختم النحل : جمع شيئا من الشمع رقيقا أرق من شمع القرص ، فطلاه به ، فهى تسمية بالمجاورة .

الخَلْو : الجوع ، والوادى الواسع ، والعسل .

الضَّيْح : العسل، واللبن، الرقيق الممزوج؛ وضوحته : سقيته إياه، واللبن مزجته بالماء ؛ فصفة المزج فى الضيح ملموحة .

السَّدَى : الندى ، أو ندى الليل ، والبلح الأخضر ، والشهد .

الرحيق، الرُّحاق : الخمر أو أطيبها أو أفضلها أو الصافى منها؛ فاطلاقهما على العسل إطلاق مجازى .

الصَّمُوت : الشُّهدة الممتلئة، حتى ليس فيها ثقبة فارغة ، ففى إطلاقه على العسل مجاز مرسل ، علاقته المحلية .

المُجاج : الريق ترميه من فيك ، والعسل ؛ ففيه صفة ملحوظة .

المجلب : الذى فى كتب اللغة الجُلَاب ، والجُلَّاب العسل ، أو السكر عقد بوزنه أو أكثر من ماء الورد ، فارسى . فهو عسل مصنوع .

الكُعير : تصغير الكُعر : شوك له ورق كثير الشوك ، تخرج له شعب تظهر فى رءوسها هناة ، وفيها وردة حمراء مشرقة ، تجرِسها (تلحسها) النحل ، فهو مجاز باعتبار ما كان .

النحل : ليست بمعنى العسل لغة ، واستعمالها فيه مجاز .

الأصبهانية — نسبة إلى أصبَهان .

الصَّرخدِىّ — نسبة إلى صرخد : بلدة بالشام .

السعابِيب — ما يمتد شبه الخيوط من العسل والخِطمِى ، فتسمية العسل بها تسمية باللازم .

وجلىٌّ مما قدمناه من الشرح أن قليلا جدا من الأسماء السابقة للعسل ، أطلقت عليه إطلاقا غير مقيد ، أو منظور فيه إلى ناحية خاصة ، أما جمهرة الأسماء فهى إما مقيدة بوصف أو نسبة ، وإما مجاز أو كناية .

ونستطيع مما سقناه من مرادفات العسل أن نقيس عليه غيره ، وأن نحكم بأن أكثر ما نسمع من المترادفات الكثيرة إنما جمعت على ضرب من التسامح . على أننا لا ننكر الترادف ، ونرى أنه واقع فعلا ، وأن وجوده فى اللغات من الخير لها ؛ ولكننا ندعو إلى التأمل والتدقيق ، وعدم الإغراق فى التوسيع والتضييق .

وللترادف فى اللغة أسباب ، ذكر منها السُّيوطى فى المزهر فى الصفحة ٢٤١ من الجزء الأول سببين : "أحدهما أن يكون من واضعين وهو الأكثر ، بأن تضع إحدى القبيلتين أحد الاسمين ، والأخرى الاسم الآخر ، للمسمى الواحد ، من غير أن تشعر إحداهما

بالأخرى ، ثم يشتهر الوضعان، ويخفى الواضعان ، أو يلتبس وضع أحدهما بوضع الآخر . وهذا مبنى على كون اللغات اصطلاحية. الثانى أن يكون من واضع واحد ، وهو الأقل " .

وفى الحقيقة أن ما ذكره ثانيا ليس سببا ، لأن الواضع إذا كان واحدا، وجب أن يبين الداعى الذى حفزه إلى وضع كلمتين أو اكثر لمعنى واحد ، أما السبب الأول فجلى واضح ، وهو من أسباب كثرة الترادف فى العربية ، لأن لغة قريش جمعت كثيرا من مفردات القبائل الأخرى ، ولأن من جمعوا اللغة ودونوها كانوا يتلقفونها من الأعراب والرواة ، ومن الآثار الشعرية ، والمأثور من كلام العرب، من غير أن يضعوا كلمات كل قبيلة على حدة ، والمعجمات التى بأيدينا امتزجت فيها كلمات القبائل ولهجاتها من غير تمييز ، فالإصبع مثلا فيها تسع لغات، وفيها الأصبوع أيضا ، ولا يصح فى الرأى أن قبيلة واحدة تنطق بكلمة الإصبع إلا على صورة واحدة، غير أن الناس شغلوا عن تحقيق هذه اللهجات ، أو اللغات، وعن نسبة كل لغة إلى قبيلتها ، وهذا مبحث شريف حقيق بعناية اللغويين .

ومن أمثلة اختلاف لغات القبائل ، وأنه من أسباب الترادف أن الوثب فى الحميرية معناه القعود ، وقد دخلت هذه الكلمة فى العربية المدونة. فأصبحت مرادفة له . جاء فى القاموس : وثب : طفر وقفز . وفلان : قعد؛ وهنا حكاية طريفة، جاء فى الصفحة ٢٣٤ من الجزء الأول من المزهر : " وقال الأزدى فى كتاب الترقيص : أخبرنا أبو بكر بن دريد، حدثنا عبد الرحمن عن عمه، قال : خرج رجل من بنى كلاب، أو من سائر بنى عامر بن صعصعة؛ إلى ذى جَدَن ، فاطَّلع إلى سطح والملك عليه ، فلما رآه الملك اختبره، فقال له : ثب : أى اقعد، فقال : ليعلم الملك أنى سامع مطيع، ثم وثب من السطح . فقال الملك : ما شأنه ؟ فقالوا له : أبيت اللعن ! إن الوثب فى كلام نزار الطَّمْر[1] . فقال الملك: ليست عربيتنا كعربيتهم . من ظَفَر حَمَّر: أى من

---

(١) الطمر : الوثوب إلى أسفل ، أو فى السماء ، والطفرة : الوثب فى ارتفاع .

أراد أن يقيم بظفار فليتكلم بالحميرية . ومن ذلك القَزّ، وهو الإباء، لغة يمانية ، تقول: قزت نفسي عن الشيء قزا : أبت ، فالإباء والقز أصبحا مترادفين ، والبِل بالكسر فى لغة حمير : المباح ، فهما مترادفان .

ويحسن بنا هنا أن ننقل ماذكره ابن جنى فى الصفحة ٣٧٦ من الخصائص، متصلا بهذا البحث. قال فى باب [فى الفصيح يجتمع فى كلامه لغتان فصاعدا]: "وأما ما اجتمعت فيه لغتان أو ثلاث، فأكثر من أن يحاط به، فإذا ورد شيء من ذلك كأن يجتمع فى لغة رجل واحد لغتان فصاعدا ، فينبغى أن تتأمل حال كلامه: فإن كانت اللفظتان فى كلامه متساويتين فى الاستعمال ، كثرتهما واحدة، فإن أخلق الأمر به أن تكون قبيلته تواضعت فى ذلك المعنى على تينك اللفظتين ، لأن العرب قد تفعل ذلك للحاجة إليه فى أوزان أشعارها، وسعة تصرف أقوالها ، وقد يجوز أن تكون لغته فى الأصل إحداهما ، ثم استعار الأخرى من قبيلة أخرى، وطال بها عهده ، وكثر لها استعماله ، فلحقت لطول المدة واتصال استعمالها بلغته الأولى . وإن كانت إحدى اللفظتين أكثر فى كلامه من صاحبتها، فأخلق الحالين به فى ذلك أن تكون القليلة فى الاستعمال هى المفادة، والكثيرة هى الأولى الأصلية . نعم ، وقد يمكن فى هذا أيضا أن تكون القُلّى منهما إنما قلت فى استعماله ، لضعفها فى نفسه، وشذوذها عن قياسه ، وإن كانتا جميعا لغتين له ولقبيلته ، وذلك أن من مذهبهم أن يستعملوا من اللغة ما غيره أقوى منه فى القياس ... وإذا كثر على المعنى الواحد ألفاظ مختلفة، فسمعت فى لغة إنسان واحد، فان أحرى ذلك أن يكون قد استفاد أكثرها أو طرفا منها، من حيث كانت القبيلة الواحدة لا تتواطأ فى المعنى الواحد على ذلك كله — هذا غالب الأمر ، وإن كان الآخر فى وجه من القياس جائزا ، وذلك كما جاء عنهم فى أسماء الأسد والسيف والخمر وغير ذلك " .

فابن جنى لا ينكر الترادف فى لغة قبيلة واحدة ، ولكنه يضع ميزانا للحكم على المترادفات، والنظر فى كونها من وضع قبيلة واحدة أو عدة قبائل ، هذا الميزان هو مقدار شيوعها واستعمالها ، ولكنه لم يترك لنا مدخلا للانتفاع بهذا الميزان ،

فقد حَفَّه بالشك والتردد ، ولم يجهر برأى حاسم : فالمرادف القليل الاستعمال يكون مرة من وضع قبيلة أخرى ، ومرة يجوز أن يكون من وضع القبيلة نفسها ، والمرادف الكثير الاستعمال خليق أن يكون من وضع القبيلة ، ولكن هذا غير لازم ، وغير حتم ، فقد يكون ، على شهرته وكثرة دورانه على ألسنة القبيلة ، من وضع قبيلة أخرى ، مما يدل على الحَيْرة ، وعدم القدرة على الجزم . والحقيقة أن أحوال اللغة ، وطرائق العرب فى الاستعمال ، لا تضبط بالقوانين المنطقية ، فإن العربىّ ، وهو أعلم بأسرار لغته ، قد يؤثر أحيانا كلمة لغير قبيلته ، لأغراض مبهمة تجيش فى نفسه ، ولذوق دقيق اقتضته صناعة الكلام .

ويكاد يتفق الأستاذ ترنش (Trench) مع علماء العربية فى هذه الناحية ، إذ يقول ما جملته :

" إن مما لا شك فيه أن اللغات لو كان وضعها باتفاق منظم بين الواضعين ، ما وجد فيها ترادف البتة ، لأنه عند وضع كلمة كفيلة بتأدية المعنى المراد منها : من فكر أو وجدان أو غيرهما ، لا يدعو داع لوضع سواها ، ولكن اللغات لا توضع بمثل هذه الطريقة المنظمة ، فهناك قبائل مختلفة ، لكل قبيلة لهجتها ، وهذه اللهجات على تقارب ما بينها متميزة مختلفة ، فإذا اندمجت هذه القبائل فى شعب من الشعوب ، نفحت لغته بنصيب من لهجاتها ، ومن أمثلة ذلك اللغة الفرنسية ، فإنها تشتمل على مترادفات كثيرة ، أتت إليها من لهجة الجنوب langue d'oc ، ولهجة الشمال langue d'oi فإن كلا اللسانين منح الفرنسية كلمات كثيرة ، لمعنى واحد ، وقد تشترك القبائل المختلفة لشعب واحد فى كلمة ، مع اختلاف فى صيغتها ، يسوّغ بقاء كل صيغة متميزة عن الأخرى .

وقد ينشأ الترادف من الغزو والفتح ، فيتغلغل الغالبون فى غمار المغلوبين ، ويفرضون عليهم حكمهم ، والسيطرة عليهم ، ولكنهم قد يعجزون أن يفرضوا عليهم لغتهم ، لقلة

عددهم ، فيضطرون إلى اتخاذ لغة المغلوبين ، وقد يحصل بعد حين ما يسمى بالاندماج بين اللغتين ، فتتغلب إحداهما على الأخرى ، وتكثر فيها الكلمات الدخيلة ، الملتجئة إليها من اللغة المغلوبة .

هذه أسباب وجود الترادف ، التى تذهب بعيدا فى ماضى تاريخ الأمم ولغاتها . وهناك أسباب أخرى ، أقرب عهدا وأكثر حداثة ، وذلك حينما تظهر فنون أو علوم جديدة ، ويكون المؤلفون متأثرين بألسنة أجنبية شتى ، فتراهم يرسلون أحيانا فى عباراتهم كلمات أجنبية ، من غير حاجة إليها ، وهذا ضرب من الرفاهية العلمية ، أكثر من أن يكون ضرورة حافزة ، تدخل هذه الكلمات فى اللغة فلا يستطيع بعضها أن ينال حق البقاء فيها ، فتذهب به عوادى النسيان ، بعد زمن قصير أو طويل ، وبعضها يأخذ طابع اللغة ، ويندمج فى كلماتها " .

ومن أسباب الترادف تداخل اللغات ، كأن يكون للكلمة الواحدة صيغة خاصة فى كل قبيلة من القبائل ، مع بقاء مادتها ، وتناولها بالنقص أو الزيادة ، أو تغيير الحركات أو الحروف ، بحيث تصبح على صور مختلفة ، وإن كان أصلها واحدا . ومن أمثلة ذلك ماذكره ابن جنى فى الصفحة ٣٧٨ من الخصائص قال : " وكقولهم الذَّروح والذُّروح والذِّريح والذُّراح والذُّرّح والذُّرْنُوح والذُّرَحْرَح والذُّرَّحْرَح ، روَينا ذلك كله " . وزاد عليه أصحاب المعجمات الذُّرحرُح والذِّريحة : الذرحرح ، وهى دويبة حمراء منقطة بسواد تطير ، والجمع ذراريح[1] ، والأمثلة من هذا النوع كثيرة جدا ، تفيض بها صفحات كتب اللغة ، ولو أرسلنا القول فيها لطال حبل الكلام .

ومن طرائف هذا الباب ماجاء فى الصفحة ٣٧٨ من الخصائص : "وروينا عن الأصمعى قال : اختلف رجلان فى الصقر ، فقال أحدهما الصقر بالصاد ، وقال الآخر السقر بالسين ، فتراضيا بأول وارد عليهما ، فحكيا له ما هما فيه ، فقال لاأقول كما قلتما ، إنما هو الزقر . أفلا ترى إلى كل واحد من الثلاثة كيف أفاد فى هذه الحال إلى لغته لغتين أخريين معها ، وهكذا تتداخل اللغات " .

---

(١) هذه الصفات تنطبق على الحشرة المعروفة عند العامة بأم العيد .

ومن أسباب الترادف الإبدال والقلب ، جاء فى الصفحة ٢٧٣ من المزهر: "قال أبو الطيب (اللغوى) فى كتابه : ليس المراد بالإبدال أن العرب تتعمد تعويض حرف من حرف ، وإنما هى لغات مختلفة لمعان متفقة ، تتقارب اللفظتان فى اللغتين لمعنى واحد ، حتى لاتختلفا إلا فى حرف واحد ، ومن أمثلة الإبدال الأيم والأين : للحية ، وطانه الله على الخير وطامه : يعنى جبله ، وفناء الدار وثناء الدار ، وجدث وجدف : للقبر ، ومرث فلان الخبز فى المـاء ومرده ، ونبض العرق ونبذ .

ومن أمثلة القلب : ربض ورضب ، وصاعقة وصاقعة ، وعميق ومعيق ، ولبكت الشيء وبلكته : إذا خلطته ، وسحاب مكفهر ومكرهف (١) .

وربما كان من أسباب كثرة الترادف ميل العرب إلى الكُنى ، وهى كثيرة فى كلامهم ، خصها عدد من اللغويين بالتآليف ، والشئ الواحد عندهم قد يناله كثير من الكُنَى يكثر إطلاقها عليه ، ويشيع استعمالها فيه ، وتزاحم اسمه فى الشهرة ، حتى تصبح مرادفة له . والأمثلة كثيرة جدا ، نقتصر على القليل منها :

من ذلك كنى النمر ، وهى : أبو الأبْرَد ، وأبو الأسود ، وأبو جهل ، وأبو خَطَّاب ، وأبو رقاش . ومن كنى الأسد : أبو الأبطال ، وأبو . رو ، وأبو الأخياس ، وأبو التآمور ، وأبو حفص ، وأبو الحذر ، وأبو الزعفران ، وأبو شبل ، وأبو ليث ، وأبو لبد ، وأبو محراب ، وأبو مِحْطَم ، وأبو النحس ، وأبو الوليد ، وأبو الهيصم ، وأبو العباس وأبو الحارث .

وقد يكون النسب من أسباب الترادف ، لأن الشيء قد ينسب إلى شخص أو مكان أو نحوهما فى أول الأمر ، ثم ينسى كل ذلك ، ويستعمل المنسوب استعمالا عاما ، فيدخل بين مترادفاته ، فالمشرفى : السيف ، نسبة إلى مشارف الشام ، وهى قرى من أرض العرب تدنو من الريف ، والسمهرى والردينى : الرمح ، ينسبان إلى سمهر ورُدينة :

---

(١) قد يقال إن هذا وما قبله ليس من باب الترادف ، وإنما هو ضرب من اختلاف اللهجات ، على أنا نرى أن هذا الاختلاف قد يكون فى بعض الأحيان عظيما كما رأيت .

زوجان كانا مثقفين للرماح ، ولكن الأدباء والشعراء يطلقون المشرفيّ على السيف من غير نظر إلى قيـد ، والسمهريّ والرديني على الرمح كذلك . والسابرى : الثوب الرقيق الجيد : نسبة الى سابور ، وهى كورة فى بلاد فارس ، على غير القياس ، والعبقريّ فى الأصل نسبة إلى عبقر ، وهو موضع كثير الجن ، ثم أطلق على الكامل من كل شيء . وقد عدّ علماء اللغة ، كما سبق لك ، الأصبَهانِية والصَّرخديّ من مرادفات العسل .

وقد ينشأ الترادف بعـد عصر الاحتجاج بالعربية ، بمـا يدخل على اللغة من الكلمات المولدة ، ومن أمثلة ذلك : البُرجاس : للغرض والهدف ، والطنْز : للسخرية وقيل هو معرب ، والطُّفَيلى : للواغِل والوَغْل ، والزَّبون : للغبيّ والحـرِيف ، والمخرقة : للكذب .

وهناك أسباب دعت إلى توهم الترادف ، منهـا دخول كلمات فى العربية من لغات أخرى ، بسبب امتزاج العرب بالفرس والروم وغيرهما من الأمم . نعم إن المتشدد لا يعدّ هذه الكلمات من المترادفات ، لاختلاف اللغة ، ولكن ما الحيلة وقد شاع استعمالها ، وأصبحت ذات حق بمضى مدة طويلة عليها ، تجرى على أسلات الأقلام ، وتجىء فى أفصح الكلام ، وقد عربها العرب ، فجرت مع الألفاظ العربية فى عِنان ؟ وقد عاش بعض هذه الكلمات ، ورسخت قدمه ، حتى تغلب على مرادفاته العربية ، وفَلَج عليها . من ذلك الألفاظ الآتية :

الأعجمى	العربى	الأعجمى	العربى
النَّرجس	العَبْهَر	الأُتْرج	المِتك
الرَّصَاص	الصِّرَفان	التُّوث	الفِرصاد
الخيار	القِثَّد	الياسَمين	السَّمسق
الهاوُن	المِنحاز	اللوبياء	الدَّبْر
المِيزاب	المِثْعَب	السكر	المِبْرَت
المِسك	المشموم	الفالوذج	السِّرطراط

ومن الألفاظ الأعجمية ما ضَعُف عن منافسة العربى ،فقل استعماله ، وذلك كالألفاظ الآتية :

العربى	الأعجمى	العربى	الأعجمى
الإبريق	التامورة	المرآة	السَّجَنْجَل
السفينة	البُوصىّ	الخُفُّ	المَوْزَج
الرغيف	الجَرْدَقَة	الأمير	القَوْمس
الجماعة من الخيل	القَيْرَوان		

ويعد الوصف من أسباب توهم الترادف ؛ لأن العرب جرت فى كثير من أحوال الكلام على حذف الموصوف ، والا كتفاء بالوصف ، سيرا على نهجها فى الإيجاز ، واعتمادا على وضوح المراد ، فاذا تكرر استعمال الوصف مستقلا ، تناسى الناس الموصوف تدريجا ، وأخذ الوصف يقرب من الاسمية قليلا قليلا ، حتى يندمج فى الأسماء المترادفة . وقد عرفنا من أقوال ابن فارس ، وهو ممن ينكر الترادف ، أن الشىء الذى يسمى بالأسماء المختلفة إنما له اسم واحد ، وما بعده من الألقاب صفات ، ويرى من عدُّوا الصفات المشهورة من المترادفات أن الصفة تُنوسيت ، حتى لو قلت : السيف الصَّمصام ، أو السيف الحُسام ، أو الأسد الأغلب ، لكان ذلك غريبا عند قوم ، بعيدا عن السَّنَن العام ، الذى استنته العرب لأساليبها ، فلما نَصَلَت الصفة أو كادت ، لم يروا فى أنفسهم حرجا أن يلحقوا الصفات بأسمائها ، ويجعلوها مرادفة لها ، فقد عدوا من مرادفات السيف كثيرا من صفاته ، كما يُعلم بالاطلاع على كتب اللغة .

ومن اسباب توهم الترادف المجاز يشتهر بين الأدباء ، فيصبح حقيقة عرفية ، أو ما يقرب منها ، ويندس بين المترادفات كأنه واحد منها بالوضع ، من ذلك ما سبق لك من تسمية العسل بالماذية والثواب والصهباء والسلاف والنحل ، إلى

غير ذلك ، فإن هذه كلها مجازات ، أطلقها البلغاء على العسل، ودارت على ألسنتهم فزاحمت كلماته الموضوعة له ، ومن ذلك تسميتهم اللغة لسانا ، والزواج بناء ، والجاسوس عينا .

والمجاز المشهور كثير جدا فى اللغة ، وقد امتلأت به المعجمات، حتى إن كثيرا من اللغويين لايفرقون بين الحقيقة والمجاز ، ومن هنا جلّت منزلة كتاب أساس البلاغة لجار الله الزمخشرى، لأنه عُنى بالتمييز بينهما .

وقد يُتوهم الترادف، بسبب عدم التمييز بين المطلق والمقيد ، فيوضع أحد اللفظين مكان الآخر، من غير تدقيق، على توهم الترادف. وقد عقد ابن فارس لذلك بابا جاء فيه : "ومن ذلك المائدة ، لا يقال لها مائدة حتى يكون عليها طعام ، لأن المائدة من مادنى يمدنى : إذا أعطانى ، وإلا فاسمها خِوان ، وكذلك الكأس : لا تكون كأسا حتى يكون فيها شراب ، وإلا فهى قَدَح أو كوب ، وكذلك الحُلة، لا تكون إلا ثوبين : إزارا ورداء من جنس واحد، فان اختلفا لم تدع حُلّة ، ومن ذلك السَّجْل، لا يكون سَجْلا إلا أن يكون دلوا فيه ماء ... ...

ومن ذلك القلم لايكون قلما إلا وقد بُرِى وأُصلح، وإلا فهو أنبوبة، وسمعت ابى يقول : قيل لأعرابى: ما القلم؟ فقال: لا أدرى، فقيل له: توهمه ، فقال : هو عود قُلِم من جانبيه، كتقليم الأظفور، فسمى قلما" .

وقد رأينا الفصحاء أحيانا لايفرقون فى المعنى بين الكأس والقدح ، وهذا بديع الزمان الهمذانى يقول فى مطلع قصيدته المشهورة :

أَذهب الكأس فَرْق الفجـــــر قـد كاد يلوح

وإذهاب الكأس: معناه لغة تمويهها بالذهب، ولكنه هنا يريد ملأها بالخمر، التى تُصيّر لون زجاجها كلون الذهب ، حتى كأنها قد موهت به ، ولو أن البديع نظر إلى أن الكأس لاتسمى كأسا حتى يكون فيها شراب، ماقال هذا، ولكنه أطلق

المقيد، وأراد المطلق، وهذا مانبهنا عليه آنفا : من أن الترادف ينشأ من عدم التميز بين المطلق والمقيـد . ومثال آخر : قال السُّيوطى فى الصفحة ٢٦٧ من المزهر : "ولا يقال ثرى إلا إذا كان نديا ، وإلا فهو تراب" ، فمـاذا نقول إذن فى قول أبى تمـام :

دِيمة سمحة القِيـاد سَكوب مستغيث بها الثَّرى المكروب

وهل يستغيث الثرى بالديمة، ويتلهف إلى مائها وقد اشتدّ به الكرب، ونال منه الهمّ، إلا إذا كان جافا يابسا، قد حرَّقه الصَّدَى، وألهبه القيظ ؟، فأبو تمـام يستعمل الثرى استعمالا مطلقا ، لم ينظر فيه إلى قيد ، وهو على هذا النحو مرادف للتراب ، ولا نريد أن نطيل هنا ؛ فإن هذا الموضوع حقيق بأن يفرد بمبحث خاص به .

ومن أسباب توهم الترادف الكناية الدالة على ذات، فإنها إذا اشتهرت، وجرت بها أقلام الكتاب، توهمها الناس حقيقة ، وأدخلوها فى عداد المترادفات ، فزاحمتها بالمناكب ، فسليل النار الذى ورد فى شعر المعرى :

سليل النار دق ورق حتى كأن أباه أورثه السُّـلالا

مرادف للسيف فى الاستعمال، وبنت عدنان، وهى كناية عن لغة العرب، أصبحت كأنها مرادفة لهـا ، وموطن الأسرار فى شعر أبى نُوَاس :

ولمـا شربنـاها ودب دبيبهـا إلى موطن الأسرار قلت لها قفى

كالمرادف للعقل ، وكثير الرماد يرادف فى استعمال الأدباء الكريم . وقد عدّ بعض علماء اللغة، كما سبق لك، قىء الزنابير، ورُضاب النحل ، من مرادفات العسل ، وهما كنايتان عنه . والذى يرجع إلى أساس البلاغة يرى من هذا جملة صالحة .

وجملة القول أن الترادف واقع فى العربية ، وأن كثيرا من علماء اللغة والأدباء توسعوا فيه، وتناسوا مابين الكلمات من فروق ، أو اختلاف فى الوضع ، أو اختلاف بين حقيقة ومجاز ، وأن الواجب يدعو إلى تمحيص هـذه المفردات وتحديد ما بينها

من فروق، ويُهيب بعلماء اللغة أن يتجردوا إلى البحث حتى لا تكون اللغة خصبة نامية فى ناحية ، قفرا فى ناحية أخرى ، وحتى تكون أدق تعبيراً وأوضح بيانا .

وإذا استمعنا للأستاذ ترنْش (Trench) فى هذه المسألة وجدناه يقول ماحصله :

إن الأمم كلما اتجهت إلى لغتها بالعناية والدرس ، وتدرجت من طور السذاجة إلى طور المدنية — وهى أكثر اشتباكا وتعقيدا — وجدت أمامها كثيرا من الأشياء يتطلب التسمية ، وكثيرا من الأفكار يعوزه التعبير ، وكثيرا من الأسباب التى تدعو إلى تحديد الفروق بين الكلمات . حينئذ تدرك أن من التبذير فى ثروتها أن تستعمل كلمتين أو أكثر فى معنى واحد، على حين قد تطلعت إليها الدنيا، وهى واسعة المدى، كثيرة المطالب ، وقد أخذ كل شىء فيهـا يُلحّ فى طلب لفظ يحدد معناه ، وقد جاشت الأفكار وضروب الوِجدان على اختلاف أنواعها ، متلهفة إلى تعبير يبرزها إلى الوجود . لاشك أن قصاص الإسراف فى ناحية من نواحى اللغة ضيق وتقتير فى نواح أخرى، فكثيرا ما نرى فكرا أو وجدانا تعوزه التسمية، لأن فكرا آخر أو وجدانا سواه ظفر بتسميتين ... ... " .

إن تحديد المعانى من أعظم أسباب الإجادة فى صناعة الكلام ، فما أجل خطره حينما نستطيع أن نعرف فى لحمة الكلمَة التى يتطلبها التعبير دون غيرها ، والتى تصور ما فى النفس تصويرا صحيحا ، لا أن نختار من طائفة الكلمات أية كلمة كيفما جاءت ، ظانين أن كل واحدة منها كفيلة بأداء المراد . إن أول مِيزات الرجل الأنيق أن تكون ملابسه مناسبة لجسمه ، لا بالقصيرة الضيقة فى ناحية، ولا بالطويلة المُرَهَّلة فى أخرى ، كذلك من أول مِيزات الأسلوب الصحيح أن تطابق أثواب كلماته معناه على خير الوجوه ، فلا تطول هنا، وترسل على الأرض، كأنها أثواب طِرِمّاح على جسم قَزَم ؛ ولا تقصر هناك حتى كأنها أثواب طفل اندس فيهـا رجل بصعوبة وجَهْد. والأسلوب الصحيح هو الذى لاتشعر حينما تقرؤه أن الكاتب يَعْنِي فيه أكثر مما كتب ، ولا أنه كتب أكثر مما يَعْنِي . وضعف الأسلوب عن

الوصول إلى هذه المرتبة آت من الحاجة إلى المهارة فى استعمال وسائل التعبير ، ومن عدم التدقيق فى اختيار الكلمات المحددة للفكر تمام التحديد ، فكم من ثروة عظيمة من الكلمات فى كل لغة تراكمت مهملة لاتستعمل ، وكم من كنوز دفنت فى بطون الكتب اللغوية النافعة ، فلا يكاد الطرف يلمح منها إلا أثرا فى صفحات المعجمات ، ونحن فى وسط كل هذه الثروة الواسعة ملتصقون بفاقة عن ارادة واختيار ، مع ما يُطلب منا من الأعمال اللغوية الدقيقة الكثيرة المصاعب . وتشبه حالنا فى إهمال التدقيق فى الكلمات ، وعدم إلباس الأفكار ما يلائمها تمام الملاءمة من الكلمات ، حالَ عامل كلف عملا يتطلب مهارة فنية ، وأعطى لذلك عددا من الآلات المتنوعة ، على أن يستعمل كل واحدة فى العمل الخاص بها ، فصمم فى إهمال أن يكتفى بآلة واحدة ، فخرج عمله غير متقن ، وقد أهملت فيه أعمال كانت وسائلها فى متناول يديه . ألسنا نجد فى كثير من الأحاديث الشائعة بين الناس ، وفى كثير من الكتب ، عددا محدودا من الكلمات استعمل فى أوانه ، وفى غير أوانه ، حتى نال منه الجَهْد ، على حين أن عددا عظيما من الكلمات يندر أن يستعان به فى أغراض ، هو فى أدائها أحسن تأتيا ، وأدق إحكاما . وقد استمر إهمال هذه الكلمات ، وطال عليه العهد ، حتى ذهبت بها عوادى النسيان .

ومن المحتمل بعد أن تحس الأمة حاجتها إلى كلمات جديدة تسد مطالب الحياة ، أن تبعث برجالها للبحث عن كلمات جديدة ، فى حين أن لغتها المهجورة تَعِجّ بكثير من الكلمات التى يبحثون عنها .

هذه مسألة جديرة بنظر العلماء . وإنى أرى فى خاتمة مقالى هذا أن خدمة العربية إنما تكون باستخراج كنوزها ، وتحديد معانى مفرداتها ، وإلباس كل جديد صورة من صورها الصحيحة .

والله سبحانه الموفق ، وبه نستعين ما

على الجارم